Iğd Üni İfder / Igd Uni Jour Div Fac
Sayı / No: 22, Ekim / October 2023
Araştırma Makalesi / Article: 171-204

جهود ابن الأثير الجزري في إبراز إعجاز النظمِ القرْآني من خلال كتابه الجامع الكبير

حيدر خليل إسماعيل[a]

المخلص: لقد انفرد النظم القرآني عن غيره مما ينظمه البشر ألفاظاً وتراكيب ومعاني وأساليب، حتى أبان النواحي التي جعلت العرب عاجزين عن مجاراة لغة القرآن الكريم. وتعددت الدراسات المظهرة للنظم القرآني المعجز قديماً وحديثاً، وكان من تلكم الدراسات كتاب الضياء ابن الأثير الجزري الذي سماه (الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور)، فجاء كتاباً غزير الفوائد، جمَّ الفرائد، وهو وإن لم يخصصه للحديث عن بلاغة القرآن الكريم، بَيْدَ أنه أورد فيه بأشياء لا يجدها الباحث في غيره من أمثاله ونظائره من الكتب التي اعتنت بالبلاغة القرآنية، وضرب لأوجه البلاغة والإعجاز في النظم أمثلة حية من القرآن الكريم، بل يكاد يكون جلُّ ما فيه معتنياً بالبلاغة القرآنية، فجلّى ما فيها من جماليات التعبير، فأظهر المخبوءَ فيها من درر، وقربها لأفهام الدارسين.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، الإعجاز، البلاغة، ابن الاثير الجزري، الجامع الكبير.

[a] Iğdır Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Temel İslam Bilimleri Bölümü
haedaralkhldy1978@gmail.com

Ibn al-Athir al-Jazari's Efforts to Reveal the Miraculousness of the Qur'anic Style Particularly in His Book Titled *al-Jami' al-Kabir*

HAYDER KHALEEL ISMAEL

Geliş Tarihi: 16.09.2023 | Kabul Tarihi: 22.10.2023

Abstract: The Qur'anic style was unique from other human writings in all respects to the point that everyone's inability to keep up with the language of the Holy Qur'an was revealed. One of those studies that talked about this was the book ad-Diya' by Ibn al-Athir al-Jazari, which he called (the great compiler in the making of the verses of speech and prose), and it was a book abundant in benefits and many unique things. Although he did not devote it to talking about the eloquence of the Holy Qur'an, he did mention things that were not the researcher finds it in other books like it and its counterparts that focused on Quranic eloquence, and examples of the aspects of eloquence and miracles in verses are examples from the Holy Qur'an. Indeed, almost everything in it is concerned with Quranic eloquence, so it shows what it contains the beauties of expression, makes clear the hidden pearls in it, and brings it closer to understanding.

Keywords: Holy Qur'an, miracle, eloquence, Ibn al-Athir al-Jazari, al-Jami' al-Kabir.

المقدمة

فإن لغة القرآن، وإن كانت مؤلفة من الحروف العربية التي تكلم بها العرب قديماً وما زالوا يتكلمون ويكتبون، غير أنها احتوت من السمات والخصائص ما ميَّزها عن كلام البشر، وهذا أمر لم يخالف فيه إلا جاهل بحاجة إلى تعليم، أو مجادل متعنت لا ينفع معه الحوار والنقاش.

ولا تقف خصائص لغة القرآن عند حد واحد من أصناف التميز؛ إذ إنه جاء متميزاً في ألفاظه عامة، وفي نظمه، وفي تراكيبه، وفي أساليبه البلاغية التي أعجزت البشر أن يدانوا منزلته، فضلاً عن أن يدركوها أو يأتوا بمثلها.

وقد كثرت الدراسات الأدبية واللغوية في بيان أوجه إعجاز القرآن الكريم، فكان منها ما هو عام في البلاغة العربية، من غير اختصاص بدراسة لغة القرآن الكريم، غير أنها تعرضت في ثناياها لأوجه تميز لغة القرآن، ومنها ما كان خاصاً بإظهار أوجه البلاغة القرآنية، وانفراد النظم القرآني عن غيره مما ينظمه البشر، وبيان النواحي التي جعلت العرب عاجزين عن مجاراة لغة القرآن الكريم. وكان من تلك الدراسات كتاب الضياء ابن الأثير الجزري الذي سماه «الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور»، فجاء كتاباً غزير الفوائد، جمَّ الفرائد، وهو وإن لم يخصصه للحديث عن بلاغة القرآن الكريم، بَيْدَ أنه جاء فيه بأشياء لا يجدها الباحث في غيره من أمثاله ونظائره من الكتب التي اعتنت بالبلاغة القرآنية، وضرب لأوجه البلاغة والإعجاز في النظم أمثلة حية من القرآن الكريم، بل يكاد يكون جلُّ ما فيه معتنياً بالبلاغة القرآنية، فجلّى ما فيها من جماليات التعبير، فأظهر المخبوءَ فيها من درر، وقربها لأفهام الدارسين.

وقد توجهت رغبتي بعد التوكل على الله تعالى إلى دراسة هذا الكتاب في مادة البلاغة القرآنية، وإظهار جهد هذا العالم الجليل في بيان البلاغة القرآنية وتميز النظم القرآني، فوجهت جهدي أن أجمع باختصار غير مخلٍّ ما وقف عليه ابن الأثير في كتابه هذا مما يتعلق بالقرآن الكريم، وأن أسلط الضوء على إبراز أوجه تميُّز بلاغة النظم القرآني عن غيره من الكلام المنظوم أو المنثور.

خطة البحث ومنهجيته: وقد جعلت البحث بعد المقدمة مركَّزاً في دراسة الكتاب، ولذلك لم أتعرض للكلام عن البلاغة أو تعريفها، أو ما يدور في فلك المقدمات التمهيدية للموضوع. واكتفيت بترجمة مختصرة للمؤلف، وكلام مختصر عن الكتاب وأبوابه التي قسمه ابن الأثير عليها.

وقد اخترت أن أجعل البحث مرتباً بحسب ترتيب رؤوس المسائل في الكتاب، مع

الإعراض عما خلا من الشواهد القرآنية من كلام الله تعالى الدالة على النظم القرآني المعجز.

ونظراً لكثرة الأمثلة القرآنية التي يوردها ابن الأثير رحمه الله أحياناً في المسألة الواحدة، فإنني سأقتصر على بعض الأمثلة مما ذكره؛ لأن البحث لا يحتمل ذلك التوسع، فإن أتى بمثال أو اثنين فقط أتيت بهما جميعاً.

وكي يحيط القارئ بموقع ما سيأتي من مسائل بين مباحث الكتاب آثرتُ الاقتصار على ما ورد تحت كل نوع ذكره من أمثلة قرآنية تدلل على مساق البحث؛ لذا كان تقسيمه على الشكل الآتي:

المبحث الأول: القطب الأول في الأشياء العامة، وينقسم إلى فنَّين أدرجت كل فن ضمن مطلب وهو مبين على الشكل الآتي:

المطلب الأول: الفنُّ الأول: فيما يجب على مؤلف الكلام الابتداء به، وهو أربعة أبواب اقتصرت على الباب الرابع وهو الحقيقة والمجاز؛ لأنه أورد فيه أمثلة على النظم القرآني المعجز دون الأبواب الثلاثة قبله.

المطلب الثاني: الفن الثاني: في الكلام على الألفاظ والمعاني، وتفضيل الكلام المنثور على المنظوم، وهو ثلاثة أبواب: الباب الأول: في الألفاظ المفردة والمركبة. الثاني: في الكلام على المعاني .الباب الثالث: في تفضيل الكلام المنثور على المنظوم، وسأقتصر على البابين الأول والثاني لتعلق البحث بهما.

المبحث الثاني: القطب الثاني في الأشياء الخاصة، وفيه فنان أدرجا ضمن مطلبين اثنين:

المطلب الأول: الفن الأول في الفصاحة والبلاغة.

المطلب الثاني: في ذكر أصناف البيان وانقساماتها، وهو بابان: الباب الأول: في الصناعة المعنوية، وهو ينقسم إلى تسعة وعشرين نوعاً اقتصرت على ما جاء فيها من نصوص كريمة تدلل على الغرض من توجه البحث، وهي ستة عشر نوعاً (الاستعارة، التشبيه، شجاعة العربية، الإيجاز، الإطناب، توكيد الضمير المتصل بالمنفصل، الكناية والتعريض، التفسير بعد الإبهام، عطف المظهَر على ضميره، التخلُّص والاقتضاب، خذلان المخاطب، الحروف العاطفة والجارة، التكرير، تناسب المعاني من المقابلة، لام التأكيد، الإرصاد). الباب الثاني: في الصناعة اللفظية: وقسمه إلى سبعة أنواع ذكرت منها ما هو متعلق ببحثنا ثلاثة فقط وهي: (السجع والازدواج، التجنيس، الموازنة)، ثم الخاتمة والنتائج

.

وقد سلكت فيه هذا البحث المنج الاستقرائي التحليلي مع الموازنة في بعض النصوص الكريمة بين ماذكره ابن الأثير الجزري مع من سبقه ولا سيما الزمخشري، مستعرضا بعض من اتكأ على المؤلف في ذكر هذه الوجوه في بيان الإعجاز القرآني.

حدود البحث: يتجه البحث إلى حدود مقومات النظم المعجم من جهة بلاغة النصوص القرآنية التي أشاحت عن الإبكات والتحدي لكل من يريد التشكيك في كونه من منبعثا من مشكاة الربوبية جل في علاه.

أهداف البحث : إبراز الوجه المعجز من الوحي الإلهي في هذا الكتاب العظيم الذي هو دليل وبرهان صدق النبوة المحمدية ﷺ، علاوة على بيان أهمية كتاب (الجامع الكبير في في صناعةِ المَنْظومِ من الكلامِ والمَنْثورِ) ومدى الجهد المبذول من قبل مؤلفه الضياء ابن الأثير الجزري الموصلي (رحمه الله).

الدراسات السابقة: لا أدعي أنني أول من تحدث عن جهود الضياء ابن الاثير غير أنني لم أستفد من أي مؤلف كتابيٍ أو بحثي في بحثي هذا غير أنني وجدت بعض المؤلفات ومنها:

- رسالة علمية بعنوان : البلاغة القرآنية عند ضياء الدين ابن الأثير : دراسة وتقويم لجاسم سليمان حمد الفهيد نشر جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي سنة 2012م ، ولم أقف أو أطلع عليها بتاتاً.
- دراسات في البلاغة عند ضياء الدين ابن الأثير للدكتور عبد الواحد حسن الشيخ كلية التربية – جامعة الاسكندرية طبع في مؤسسة سباب الجامعة سنة 1986م ، وسلك مؤلف الكتاب هذا مسلك بيان الدرس البلاغي بشكل عام ولم يتطرق إلى الإعجاز في النظم القرآني بشكل خاص، وهو ما توجهت إليه همتي جاهداً؛ لإظهار ذلك من خلال كتاب الجامع الكبير لابن الأثير .

فالله سبحانه أسأل أن يأخذ بيدي إلى القيام بحق البحث حق القيام، وأن يعصمني من الزلل فيه، وإن كان الخطأ ملازماً للبشر لا سبيل إلى الخلاص منه، وحسبي أن يوفقني الله إلى تقديم أفضل ما يمكن القيام به، فإن كان ذلك فهو من فضل الله سبحانه، وإن يكن غير ذلك فإنه من تقصيري، والله يغفر لي ولمن قرأ فيه، وأسدى نصيحة بالتصحيح والتقويم، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد:

أولاً- ترجمة ابن الأثير الجزري

هو ضياء الدين، أبو الفتح، نَصْر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، ابن الأثير الشيباني، الجزري.

وُلد رحمه الله بجزيرة ابنِ عمر سنة (658هـ)، ثم انتقل إلى الموصل، وبها نشأ وتعلم حيث نشأ أخواه المؤرخ عليٌّ، والمحدِّث المبارك، فحفظ القرآن، وسمع الحديث، وأقبل على العربية واللغات، فحفظ الكثير من الأشعار القديمة والمحدَثة، وحفظ شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي. وكان رحمه الله ذا لسانٍ وفصاحة وبيان.

تنقَّل بين الشام وحلب والموصل وبغداد وغيرها، وكانت له وظائف في الوزارة والإنشاء، وذلك في عهد صلاح الدين الأيوبي وولده الأفضل والملك العادل وغيرهم من أمراء وحكام ذلك الزمان، وحدثت له أمور كثيرة أثناء ذلك، كان بعضها خيراً له وبعضها فيه غير ذلك.

ترك ابن الأثير رحمه الله الكثير من المصنفات التي تدل على فضله، وغزارة علمه، وكان من أهمها وأشهرها كتابُه ذائع الصيت «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، جمع فيه فأوعب، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلَّا ذكره، وقد انتشرت نسخه في الأمصار، وأقرأه في حياته مراراً، وكان للعلماء في عصره مداولات ومناقشات حول الكتاب. ومن كتبه كذلك: «كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب»، و«المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء»، و«الوشي المرقوم في حل المنظوم»، و«الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور»، وهو متعلَّق هذا البحث، وغيرُها من الكتب التي ظهر فيها علمه وفضله.

تُوفِّي رحمه الله في بغداد سنة (637هـ)[1].

ثانياً- عملُ ابن الأثير في «الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور»

اعتنى الشيخ رحمه الله في كتابه هذا بعلم البيان؛ لما في ذلك من أهمية لمن أراد أن يقف على كيفية تأليف الكلام، ويعرف كنه أمره، فعلم البيان هو ميزان هذه الصناعة، وقد اطلع على أقوال الأئمة فيه، ممن له كتاب يشار إليه فيه، أو قولٌ تُعقد الخناصر عليه، كأبي الحسن الرماني، وأبي عثمان الجاحظ، وغيرهما من الأئمة المعتبرين في هذا الشأن.

---

[1] تُنظر ترجمته في: وفيات الأعيان، لابن خلكان 389/5، وتاريخ الإسلام، للذهبي 258/14، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي 315/2، والأعلام، للزركلي 31/8.

غير أن ابن الأثير قد لحظ أنهم غفلوا عن أشياء حواها القرآن الكريم، ولم ينبهوا على شيء منها، فكان ذلك باعثاً له على تصفح آيات القرآن العزيز، والكشف عن سره المكنون، فاستخرج منه ثلاثين ضرباً من علم البيان، لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان. ووصف ما ظفر به في ثنايا بحثه في القرآن الكريم بأنه أصلُ هذا الفن وعمدتُه، وخلاصة هذا العلم وزبدته، فأفرد لها كتابه هذا الذي سماه «الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور»، وشرح فيه جميع أنواع علم البيان.

ولم يجعل كتابه هذا كتاباً في التنظير لعلم البيان، ولا لعرض مباحثه النظرية التي يجدها الباحث في غيره من الكتب، وإنما أراده أن يكون «مقصوراً على شوارد هذا العلم وغرائبه، ورموزه الخفية وعجائبه، وليجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته، ويعلمَ به مواقع الصواب من صناعته.

وقد جعل ابن الأثير رحمه الله آلات التأليف في النثر محصورة في سبعة أنواع، وجعل «حفظ القرآن الكريم والممارسة لغرائبه، والخوض في بحور عجائبه» النوع السادس منها، وهذا يدل على تركيزه على ممارسة ألفاظ كتاب الله سبحانه، والمِران على أسلوبه وتراكيبه؛ لأنه أعلى مستوى من الكلام الذي يمكن أن يستمع إليه بشر، أو يحاول محاكاته في شيء من أساليبه.

وسأحاول في هذا البحث أن أعرض لجهوده في بيان البلاغة القرآنية والنظم المعجز في كتاب الله العزيز، ولذلك فلن أتعرض للجوانب الأخرى التي أفاض فيها مما لا علاقة له مباشرة بآيات الكتاب الكريم، إلا ما كان ضرورياً لاستجماع الصورة الكلية للمسألة المطروحة، كي لا تُقتطع من سياقها، فتفقد مضمونها ويضيع محتواها.

وقد اخترت أن أجعل البحث مرتباً بحسب ترتيب رؤوس المسائل في الكتاب، مع الإعراض عما خلا من شواهد من كلام الله العزيز.

ونظراً لكثرة الأمثلة القرآنية التي يوردها ابن الأثير رحمه الله أحياناً في المسألة الواحدة، فإنني سأقتصر على بعض الأمثلة مما ذكره؛ لأن البحث لا يحتمل ذلك التوسع، فإن أتى بمثال أو اثنين فقط أتيت بهما جميعاً.

وكي يحيط القارئ بموقع ما سيأتي من مسائل بين مباحث الكتاب آثرتُ أن أعرض لأبواب الكتاب كما عرضها ابن الأثير، وإن لم تكن كلها ضمن شروط هذا البحث، محافظاً على ترتيبها وتفريعها، مع ترقيمها أصلاً وفرعاً، فتترابط بذلك أقسام الكتاب، وتلتحق كل مسألة بنظائرها، وترتبط بأصولها، ويستطيع القارئ للبحث أن يجد موقعها بالنسبة لبقية المسائل، وإلى أين يرجع أصلها .

جعل ابن الأثير رحمه الله كتابه مقسوماً على قطبين، وبوبه على النحو الآتي :

القطب الأول: في الأشياء العامة .

القطب الثاني: في الأشياء الخاصة.

وينقسم القطب الأول إلى فنَّين : الفنُّ الأول: فيما يجب على مؤلف الكلام الابتداء به، وهو أربعة أبواب :

الباب الأول: في آلات التأليف . الباب الثاني: في أدواته. الباب الثالث: في الطريق إلى صناعة النثر والنظم .

الباب الرابع: في الحقيقة والمجاز.

الفن الثاني: في الكلام على الألفاظ والمعاني، وتفضيل الكلام المنثور على المنظوم، وهو ثلاثة أبواب: الباب الأول: في الألفاظ المفردة والمركبة. الباب الثاني: في الكلام على المعاني .الباب الثالث: في تفضيل الكلام المنثور على المنظوم.

القطب الثاني: وفيه فنان : الفن الأول: في الفصاحة والبلاغة. الفن الثاني: في ذكر أصناف البيان وانقساماتها، وهو بابان: الباب الأول: في الصناعة المعنوية. الباب الثاني: في الصناعة اللفظية. وينقسم الباب الأول إلى تسعة وعشرين نوعاً : الأول: في الاستعارة . الثاني: في التشبيه . الثالث: في شجاعة العربية . الرابع: في الإيجاز . الخامس: في الإطناب .السادس: في توكيد الضمير المتصل بالمنفصل . السابع: في الكناية والتعريض . الثامن: في استعمال العام في النفي، والخاص في الإثبات . التاسع: في التفسير بعد الإبهام. العاشر: في التعقيب المصدري . الحادي عشر: في التقديم والتأخير . الثاني عشر: في عطف المظهَر على ضميره . الثالث عشر: في التخلُّص والاقتضاب . الرابع عشر: في المبادئ والافتتاحات . الخامس عشر: في قوة اللفظ لقوة المعنى . السادس عشر: في خذلان المخاطب . السابع عشر: في الاشتقاق . النوع الثامن عشر: في الحروف العاطفة والجارة . النوع التاسع عشر: في التكرير . العشرون: في تناسب المعاني من المقابلة والتقسيم والتفسير . الحادي والعشرون: في الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية .الثاني والعشرون: في لام التأكيد . الثالث والعشرون: في الاقتصاد والإفراط والتفريط . الرابع والعشرون: في المعاظَلة .الخامس والعشرون: في التضمين . السادس والعشرون: في الاستدراج . السابع والعشرون: في الإرصاد . الثامن والعشرون: في التوشيح . التاسع والعشرون: في الأخذ والسرقة.

وينقسم الباب الثاني إلى سبعة أنواع : الأول: في السجع والازدواج . الثاني: في

التجنيس . الثالث: في الترصيع . الرابع: في لزوم ما لا يلزم . الخامس: في الموازنة . السادس: في اختلاف صيغ الألفاظ . السابع: في تكرير الحروف .ولن أقف كما أشرت على كل هذه الأبواب؛ وسأقصر البحث على ما تعرض فيه ابن الأثير للشواهد القرآنية التي تُظهر بلاغة القرآن، ونظمه المعجِز. وسأحرص على أن يكون ترتيب المسائل وما يتفرع عنها في هذا البحث مطابقاً لترتيب أبواب الكتاب ومباحثه.

المبحث الاول : القطب الأول في الأشياء العامة

المطلب الأول: الفنُّ الأول: فيما يجب على مؤلف الكلام الابتداء به، وهو أربعة أبواب:أحدهما: ما يجب على مؤلف الكلام الابتداء به، وقد قسمه إلى أربعة أبواب، غير أن ما يتعلق بالبحث منها هو الباب الرابع فقطكما أشرنا إلى ذلك في المقدمة، وهو:

أ- الحقيقة والمجاز:[2]

والحقيقة: هي اللفظ الدال على موضوعه الأصلي، والمجاز: ما أُريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة؛ اتساعاً. وقيل غير ذلك في تعريفهما.

ثم بيَّن رحمه الله أقسام المجاز، ووزعّها على أربعة عشر قسماً، وسأقتصر منها على ما ساق له أمثلة من كتاب الله العزيز.

1. فمنها: الزيادة في الكلام لغير فائدة؛ كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]. فـ«ما» هاهنا زائدة لا معنى لها، أي: (فبرحمة من الله لنت لهم). وجاء في عن الشيخ عبد القاهر الجرجاني أن (ما) هنا تفيد التوكيد، وهي زائدة عن أصل الكلام من باب المجاز غرضها التوكيد[3]، فلا تكون زيادتها لغير فائدة، بل لفائدة مرادة في الكلام وهي التأكيد خلافاً لما أوهمه كلام ابن الأثير والله أعلم.

2. ومنها: النقصان الذي لا يبطل به معنى الكلام، كحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ [النساء: 112] يريد: (شخصاً بريئاً)[4].

وكحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾

---

[2] ينظر في تعريف الحقيقة والمجاز: أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني الدار، 350 وما بعدها؛ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلويّ، 1/ 27 وما بعدها.

[3] ينظر: أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص419.

[4] ينظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي، 6، 337.

[يوسف: 82]، أي: (أهل القرية)[5].

3. ومنها: تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: 36]. وإنما كان يعصر عنباً[6].

4. ومنها: تسمية الشيء بحكمه، كقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا...﴾ الآية [الأحزاب: 50]. فسُمي النكاح هبة[7].

والفرق بين المجاز والحقيقة أن الحقيقة جارية على العموم في نظائر اللفظ العام، وليس كذلك في اللفظ الذي حُمل على المجاز، فلا يصح أن نُعمّم ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ على غيرها من الجمادات؛ فلا يمكن أن نقول: (واسأل الحجر أو التراب).

ثم قرر الشيخ أن المجاز قد صار في تعارف الناس بمنزلة الحقيقة، بل هو أقرب إلى التعريف من الحقيقة، وأولى منها بالاستعمال، وأحق بالإفهام، ومن الدلائل على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 18]. «ألا ترى أنه أبلغ من أن يقال: (إذا انتشر)؛ لأن التنفس يعطي من الدلالة ما لا يعطيه الانتشار، وذلك لما فيه من بيان الروح على النفس عند إضاءة الصبح، فجعل ظهور الصبح وانتشاره من خلال الليل شيئاً فشيئاً كالتنفس؛ لأن أول ما يبدو الصباح، ثم ينمي في انتشاره بالتدرج، كإخراج الإنسان نفَسَه»[8].

وللعدول عن الحقيقة -التي هي الأصل- إلى المجاز -الذي هو الفرع- معانٍ ثلاثة يُسعى إليها، وهي: الاتساع والتشبيه والتوكيد، ومن الأمثلة القرآنية التي حوت المجاز الجامع لهذه المعاني جميعاً قوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: 75]. «أما الاتساع: فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحالّ اسماً هو الرحمة، وأما التشبيه: فإنه شبه الرحمة -وإن لم يصح دخولها- بما يجوز دخوله، وأما التأكيد: فإنه أخبر عما لا يُدرك بالحاسة، وذلك تغالٍ بالمخبَر عنه، وتفخيم له؛ إذ صُيِّر إلى منزلة ما يُشاهد ويُعايَن»[9].

المطلب الثاني: في الكلام على الألفاظ والمعاني: انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى

---

[5] الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ص28، وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين الخطيب القزويني، 1/ 110.

[6] ينظر: الجامع الكبير، ص29؛ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ص254.

[7] ينظر: الجامع الكبير، ص29، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي، 4/ 392.

[8] الجامع الكبير، ص30، وينظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي،3/ 435.

[9] الجامع الكبير، ص30-31.

الحديث عن الفن الثاني وهو الكلام على الألفاظ والمعاني، وتفضيل الكلام المنظوم على المنثور، وجعله على أبواب ثلاثة: **أولها:** في الألفاظ المفردة والمركبة، **وثانيها:** في المعاني، **وثالثها:** في تفضيل الكلام المنظوم على المنثور.

فأما الألفاظ المفردة فقد قسم الكلام فيها إلى قسمين:

أ- في الكلام على الألفاظ المفردة، والفرق بين الجيد منها والرديء، ونقل في كلامه عن القسم الأول عن علماء هذه الصناعة أن أوصاف الحسن والجودة التي توجد في اللفظة الواحدة تنقسم إلى سبعة أنواع، أنتقي منها ما له علاقة بشواهد القرآن الكريم:

1- فمن ذلك: ألَّا تكون الكلمة قد عُبِّر بها عن معنى يُكره ذِكره: وذلك إذا جاءت عارية عن القرينة التي تُخصص معناها، وتُبعده عن المعنى القبيح، فإذا جاءت ومعها القرينة لم تكن قبيحة ولا مستكرهة.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]. فإن لفظة: (التعزير) مشتركة بين التعظيم والإكرام، والضرب الذي هو دون الحد، وذلك نوع من الإهانة، فقد جاءت في الآية معها قرائن سابقة لها ولاحقة تخصص معناها بالحُسن، وتميّزه عن المعنى القبيح، ولولا تلك القرائن لسبق إلى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح، وإن كان يُراد بها المعنى الحسن[10].

2- ومنها: أن تكون الكلمة مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً: «ذلك أنها إذا رُكِّبت من حروف قليلة خفت على النطق؛ لقصرها، وسهل التعبير بها على اللسان؛ لسرعة فراغه منها، وإذا تركَّبت من حروف كثيرة كان في النطق بها كلفة على الناطق، وذلك لتطاولها وامتداد الصوت بها»[11]. ولهذا كانت ألفاظ القرآن أكثرها ثلاثية، وكان القليل منها رباعيّاً، وليس فيه شيء من الخماسي البتَّة، إلا ما كان من اسم نبيٍّ فقط، كإبراهيم وإسماعيل.

وقد ساق ابن الأثير رحمه الله اعتراضاً بأن ما عابه من طول الألفاظ قد وُجد في القرآن ما يماثله ويشابهه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ الآية [النور: 55]، وقوله سبحانه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة: 137]. فلفظة: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ عشرة أحرف، ولفظة: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ تسعة

---

[10] ينظر: الجامع الكبير، ص52-53؛ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي، 71/1.

[11] الجامع الكبير، ص57

أحرف، ولذلك أمثلة في القرآن كثير، فكيف يكون ذلك منكراً في التأليف وقد ورد في القرآن المجيد؟!

فأجاب رحمه الله عن ذلك بما يُظهر أن القرآن لم يخرج عن ذلك حتى في هذه التي يُدَّعى أنها طويلة.

فقوله سبحانه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ عبارة عن ثلاث كلمات جُمعت فصارت كلمة واحدة صورة، لا معنى؛ لأن الأصل فيها: (ليستخلفن الله المؤمنين)، فأضمر ذكر المؤمنين لمّا سبق ذكرهم مظهراً.

وكذلك القول في قوله سبحانه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾[12].

ب-في صناعة تركيب الألفاظ، وفي القسم الثاني -وهو صناعة تركيب الألفاظ- أوضح الشيخ رحمه الله أن اللفظة لا مزية لها على أختها التي في معناها، قبل دخولها في سبك التأليف، وتحولها إلى الصورة التي تُسمى كلاماً دالّاً على معنى من المعاني، إلا بأن تكون لفظة أشرف من لفظة بعلامات توجد فيها؛ بأن تكون إحداهما مألوفة، والأخرى حُوشية، أو غير ذلك مما تتفاضل فيه الألفاظ.

ومن أراد أن يحكم على الألفاظ جودةً أو رداءة فلا بد له أن يعتبر كل لفظة من الكلام على انفرادها أولاً، فإذا تبين له اشتمالها على الصفات التي تتفاضل بها كلمة على أختها، علم حينئذ أنها حقيقةٌ بأن تدخل في سبك التأليف. ولا يكتفي بذلك، بل عليه أن يعود ويعتبر مكانها من النظم، والتئامها مع أخواتها، فإذا وجدها شديدة المناسبة لها، حسنة الامتزاج معها، حكم على ذلك اللفظ بالجودة، وشهد له بالرونق والطلاوة، وإن كان الأمر بخلاف ذلك حكم عليه بالرداءة والقبح، بحسب ما يستحق من الوصف.

والأصل في هذا كله حسن التأليف وجودة التركيب؛ فإن هذا هو ما يزيد المعنى جمالاً، ويحفز النفوس إلى الإصغاء إليه. و«حسن التأليف: هو أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتجعل في أما كنها. وسوء التأليف بخلاف ذلك»[13]. كأن يُقدّم ما حقُّه التأخير، ويُؤخِّر ما حقُّه التقديم.

1- ومن أمثلة ذلك في كتاب الله عز وجل قوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44]. فإن المتأمل في هذه الآية لا يجد لألفاظها مفردة مزية ظاهرة تفضلها

---

[12] ينظر: الجامع الكبير، ص57-58؛ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 60/1؛

[13] الجامع الكبير، ص65.

على غيرها من الألفاظ، ولا يجد فضيلة إلا في حسن ارتباطها ببعضها، وانسجام كل كلمة بأختها السابقة واللاحقة، فإنه لو أراد أخذ كلمة من مكانها بعيدة عن أخواتها لما وجدها مؤدية من الحسن والجمال ما تؤديه وهي في موضعها من الآية[14].

ويستدل ابنُ الأثير رحمه الله على صحة ما ذهب إليه بأنَّ ألفاظ القرآن الكريم كلها قد تكلم بها العرب قبل نزول القرآن، وعلى الرغم من ذلك فإن القرآن يفوق جميع كلامهم، ويعلو عليه مع كونه وارداً على لغتهم؛ ذلك أن ألفاظ القرآن الكريم إنما تفضل سائر الكلام من حيث تركيبها ونظمُها، وهي مساوية لكلام العرب عند الانفراد؛ حيث هي عين ألفاظهم، ونفس كلامهم[15].

المبحث الثاني: القطب الثاني في الأشياء الخاصة

المطلب الأول: في الفصاحة والبلاغة: فالفصاحة: اسم عام يشمل المفرد من اللفظ والمركَّب، فهي تشمل أولاً المفردة، ثم تتعدى منها إلى المركبة؛ لأن المركبة إنما تجتمع من المفردة. ثم إنها أمر إضافي، كالحسن والقبح، فالكلام الفصيح ليس مخصوصاً بعينه، فكل من فهم كلاماً فهو فصيح بالنسبة إليه.

أما البلاغة: فهي تعم الكلام مركَّباً لا مفرداً، فكل كلام بليغ هو كلام فصيح، وليس كل كلام فصيح يكون بليغاً[16].

المطلب الثاني: في ذكر أصناف علم البيان وانقساماتها: وقد قسمه ابن الأثير رحمه الله إلى بابين: الأول: في الصناعة المعنوية، والثاني: في الصناعة اللفظية.

أ- في الصناعة المعنوية، وقد جعله ابن الأثير رحمه الله تسعة وعشرين نوعاً، سأكتفي بذكر ما له علاقة بالبيان القرآني، وما ساق له من شواهد قرآنية.

1- فمن تلك الأنواع: **الاستعارة**[17]: وهي «أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع الإفصاح بالتشبيه وإظهاره، وتجيء على اسم المشبه به وتجريه عليه»[18]. والاستعارة لا بد فيها من مستعار، ومستعار منه، ومستعار له، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله سبحانه:

---

[14] ينظر: الجامع الكبير، ص66؛ دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني: 1/45-46.

[15] الجامع الكبير، ص66.

[16] ينظر في تعريف البلاغة والفصاحة والفرق بينهما: الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي، 1/10 وما بعدها؛

[17] ينظر في تعريف الاستعارة: النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي، ص85؛ أسرار البلاغة فى علم البيان، عبد القاهر الجرجاني: ص30-31.

[18] الجامع الكبير، ص82.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4]، فهذا فيه مستعار، وهو (الاشتعال)، وقد نُقل الأصل الذي هو (النار) إلى الفرع الذي هو (الشيب)؛ قصداً للإبانة، وأما المستعار منه فهو النار، والاشتعال لها حقيقة، وأما المستعار له فهو الشيب، والاشتعال له مجاز[19]. ولما كان الشيب يأخذ في الرأس شيئاً فشيئاً حتى يغير لونه الأول، كان بمنزلة النار التي تشتعل في الجسم وتسري فيه حتى تُحيلَه إلى غير حاله المتقدمة. هذا ما ذكره البلاغيون في هذه الآية، غير أن ابن الأثير أضاف نكتة أخرى فيه: وهي «أنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار في سرعة التهابه، وتعذر تلافيه، وفي عظم الألم في القلب به، ولأنه لم يبق إلا الخمود بعده. فهذه الاستعارة البديعة هي التي تعجز القدرة عن الإتيان بمثلها»[20].

وأبلغ الاستعارات ما ناب التشبيه منابها، وكلما زدتَ التشبيه فيها إخفاء ازدادت الاستعارة حسناً ورونقاً. والاستعارة تنقسم إلى قسمين: مناسبة وغير مناسبة، والاستعارةُ المقبولةُ التي نجد أمثلة لها في كتاب الله عز وجل هي الاستعارة المناسبة، وذلك بأن يكون بين المستعار وما استُعير له تشابهٌ وتناسُب. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: 37]. فهذا الوصف إنما هو فيما يظهر للعين، لا على حقيقة المعنى؛ لأن السلخ يكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض، والشمس والقمر ليسا على الحقيقة بشيئين يُسلخ أحدهما من الآخر، بل هما اسمان يقعان على الجو عند إظلامه وإضاءته، لكن لما كانت مبادئ الصبح عند طلوعه كأنها ملتحمة بأواخر الليل، أُجري عليهما اسم السلخ، وصار ذلك لائقاً في بابه، وكان التعبير بـ(نسلخ) أولى من التعبير بـ(يخرج)؛ لأن السلخ أدل على الالتحام المتوهَّم من الإخراج، فانفصال الليل عن النهار وزواله عنه بالتدريج، أوضح في التعبير عنه بالسلخ، كما يُسلخ جلد الشاة عنها[21].

قال ابن الأثير رحمه الله: «فانظر أيها المتأمل لهذه الاستعارة، وشدة التناسب الذي بينها وبين ما استُعيرت له، ومشابهتها إياه؛ فإنها من الاستعارات التي لا أمد فوقها في الحسن»[22].

---

[19] المصدر نفسه، ص84.

[20] الجامع الكبير، ص85؛ وينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، 3/ 4؛ التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، 64/16.

[21] ينظر: الكشاف، الزمخشري، 16/4؛ معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، 210/1؛ التحرير والتنوير، 23/17-18.

[22] الجامع الكبير، ص85.

2- ومن تلك الأنواع أيضاً: **التشبيه:** وهو أن يثبُت للمشبَّه حكمٌ من أحكام المشبَّه به[23].

وفائدة التشبيه: الكشف عن المعنى المقصود، مع ما يكتسبه من فضيلة الإيجاز والاختصار. ولا يخلو الشيئان في تشبيه أحدهما بالآخر من ثلاثة أقسام: أحدها: تشبيه معنى بمعنى، وثانيها: تشبيه معنى بصورة، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ الآية [النور: 39]، فشبه ما لا يدرك بالحاسة بما يُدرَك بها[24]، وثالثها: تشبيه صورة بصورة، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: 24]، فشبه صورة أجسام الفُلْك في كبرها وعظمها بالجبال، وذلك تشبيه صورة مرئية بصورة مرئية[25].

وكل واحد من هذه الثلاثة ينقسم ثلاثة أقسام أيضاً: أحدها: تشبيه مفرد بمفرد، وتشبيه مركّب بمركّب، وتشبيه مفرد بمركّب.

ومن أمثلة تشبيه المركّب بالمركّب: قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ الآية [يونس: 24]. ففي هذه الآية تشبيه «حال الدنيا بسرعة زوالها، وانقراض نعيمها، بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطاماً، بعدما التفَّ وتكاثف، وزيَّن الأرض، وذلك تشبيه معنى بصورة، وهو من أبدع ما يجيء في هذا القسم»[26].

ومن ذلك قوله عز وجل في حق المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17]، فكما أن ذلك الرجل طفِئت ناره فبقي في ظلمة وحيرة بعدما كان في نور وأمان، كذلك المنافق استنار بكلمة الإيمان التي أظهرها، وأمن بسببها، فإذا مات ذهب ذلك النور وهذا الأمان، وبقي له العذاب والخوف. وقد جاء هذا التمثيل عقب وصفهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: 16]. ثم لما أبَوا استعمال حواسهم على الرغم من أنها سليمة

---

23 ينظر في تعريف التشبيه: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، 20/2؛ عُقُودُ الجُمَانْ في عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانْ، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ص 73؛ حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، محمد بن عرفة الدسوقي، 58/3.

24 ينظر: علم البيان، عبد العزيز عتيق، ص 42.

25 ينظر: علم البيان، عبد العزيز عتيق، ص 73.

26 الجامع الكبير، ص93.

معافاة، جعلهم كأنما أصابت هذه الحواس منهم الآفات، «وهذا من عجائب التشبيه»[27].

ولم يرتض ابن الأثير أن يجعل قوله سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: 18] استعارة، وعلل ذلك بأن المستعار له -وهم المنافقون- مذكور، « والاستعارة إنما تطلق بحيث يُطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلواً منه، صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال من فحوى الكلام عليه»[28]. وما عليه المحققون في علم البلاغة أن في النص الكريم تشبيهاً بليغاً وليس فيها استعارة[29]

3- ومن تلك الأنواع ما سماه ابن الأثير: **شجاعة العربية**[30]: وهو نوع من البيان تتكاثر لطائفه، وتتوافر محاسنه؛ لأن معظم البلاغة مندرجة في أثنائه. وهو ينقسم إلى أقسام، منها:

- **الالتفات:** وهو الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة؛ افتناناً في الكلام، بالإضافة إلى الكثير من الفوائد التي يرجوها المتكلم. ولهذا النوع في القرآن الكريم أمثلة عديدة، فمن ذلك: **الرجوع من الغيبة إلى الخطاب**، كما في قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 2 - 7]. وليس العدول هنا من الغيبة إلى الخطاب اتساعاً، إنما عدل إليه لفائدة حسنة، وذلك أن الحمد لله دون العبادة، ولذلك لم يقل: (الحمد لك)، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فصرح بالخطاب لمّا ذكر النعمة، ثم قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ ولم يقل: (غير الذين غضب عليهم)؛ لأن الأول موضع التقرب من الله تعالى بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، فجاء باللفظ منحرفاً به عن ذكر الغضب، فأسند النعمة إليه لفظاً، وروى عنه ذكر الغضب؛ تحسناً ولطفاً. «فانظر إلى هذه اللغة الشريفة، وتناسب هذه المعاني اللطيفة التي الأقدام لا تكاد تطؤها، والأفهام -مع قربها- صافحة عنها»[31].

---

[27] الجامع الكبير، ص93؛ وينظر: تفسير الكشاف، 144/1؛ التحرير والتنوير، 302/1.

[28] الجامع الكبير، ص93-94.

[29] ينظر: تفسير الكشاف،76/1؛ عروس الأفراح، 23/2؛ حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، 55/3.

[30] وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات، وأول من سماه بذلك ابن جني. ينظر: الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، 2/ 362؛ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير الكاتب، 3/2.

[31] الجامع الكبير، ص98-99.

وأما **الرجوع من الخطاب إلى الغيبة**، فمنه قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: 22]، وفائدة صرف الكلام هنا من الخطاب إلى الغَيبة أنه ذكر لغيرهم حالهم؛ ليُعجّبَهم منها، كالمخبر لهم الذي يستدعي منهم الإنكارَ والتقبيح، ولو ساق ذلك بأسلوب الخطاب فقال: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم ...) إلخ، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغَيبة[32].

ومن الالتفات كذلك: **الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر**، ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: 53-54]، فلم يقل: (وأُشهدكم)؛ لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت في معنى يُثبِت التوحيد، أما إشهادُهم فما هو إلا دلالة على قلة المبالاة بهم، وتهاونٍ في دينهم، وجيء به على لفظ الأمر؛ تهكُّماً واستهانة بحالهم، التحاشي والاحتراز عن مُساواة الّلاحق بالسّابق، فلم يقُل (وأُشهدكم) تَحاشياً وفراراً مِن مُساواة شهادتهم بشهادة الله تعالى[33]،

ومنه: **الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع، ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد**، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 87]، وهذا فيه توسع في الكلام، وتنويع في الخطاب، فإنه سبحانه ثنَّى في هذه الآية، ثم جمع، ثم وحّد، فخاطب موسى وهارون عليهما السلام بالنبوة والاختيار، وهذا خاص بالأنبياء، ثم ساق الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد، كأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى صلوات الله عليه بالبشارة التي هي الغرض؛ تعظيماً له، ولأنه الرسول على الحقيقة[34].

- ومن أنواع شجاعة العربية: **الإخبار عن الفعل الماضي بالمضارع، وعن الفعل المضارع بالماضي**:

أما **الإخبار بالفعل المضارع عن الماضي**: فإن الفعل المضارع إذا أُتي به في حال

---

[32] الجامع الكبير، ص99؛ وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، 88/2.

[33] ينظر: الجامع الكبير، ص101؛ جواهر البلاغة، ص92.

[34] ينظر: الجامع الكبير، ص101-102؛ أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، ص191.

الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالماضي؛ لأن المضارع يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأن السامع يشاهدها، وليس الفعل الماضي كذلك. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: 9]، فالتعبير بالمضارع ﴿فَتُثِيرُ﴾ مع الماضي قبله وبعده جاء لمعنى بديع، وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح للسحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة[35]. وما أجمل ما استعرضه الاسكافي في درته بياناً لبراعة الانتقال بين أزمنة الفعل من الماضي إلى المضارع في الآية الكريمة للدلالة على القدرة الربانية النافذة في كل وقت وبنفس الصفة العلية له تعالى[36].

وأما **الإخبار بالفعل الماضي عن المضارع**: فإن فائدته أن الماضي إذا أخبر به عن المضارع إذا لم يوجد بعد كان أبلغ وآكد؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان وجد وصار من الأمور المحكوم بكونها وحدوثها. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: 87]، فقد قال: ﴿فَفَزِعَ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله: ﴿يُنْفَخُ﴾ الدال على المستقبل؛ للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة[37].

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: 21]، فإن ﴿بَرَزُوا﴾ بمعنى: (يبرزون) يوم القيامة، والتعبير بالماضي؛ لأن ما أخبر الله سبحانه به كأنه قد وجد وانتهى؛ لصدقه وصحته[38]. قال الواحدي في تفسيره "وورد هذا بلفظ المضي وإن كان معناه الاستقبال، لتحقق كونه"[39]

- ومن أقسام شجاعة العربية: **الحمل على المعنى:** والحمل على المعنى واسع في لغة العرب، وله أحوال كثيرة، كتأنيث المذكر وتذكير المؤنث، وما إلى ذلك مما يدخل في هذا الباب. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ [الأنعام: 158]، فقد قرئ: (لا تنفع)[40] بالتأنيث، فأنَّث فعل الإيمان لمَّا كان من النفس وبها.

---

[35] الجامع الكبير، ص103.

[36] درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، 2/ 589.

[37] الجامع الكبير، ص104.

[38] المصدر نفسه، ص104.

[39] التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، 447/21؛ وينظر: تفسير الكشاف، 548/2.

[40] هذه القراءة من الشواذ، قرأ بها أبو العالية، وينظر توجيهها في المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني، 236/1، وإملاء ما من به الرحمن للعكبري، ص266.

وأما تذكير المؤنث فشائع في كلام العرب، ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: 78]، أي: هذا المرئي. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ [البقرة: 275]؛ لأن الوعظ والموعظة واحدة[41]. والعرب إذا حملت على المعنى لم تراجع اللفظ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258]، ثم قال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الآية [البقرة: 259]، «فإن ذلك محمول على المعنى، كأنه قال: أرأيت الذي حاجّ إبراهيم في ربه، أو كالذي مر على قرية، فجاء بالثاني على أن الأول قد سبق كذلك»[42].

- ومما يدخل في شجاعة العربية: **التقديم والتأخير**: وهذا مما يتعلق بعلم النحو، وهو قسمان: أحدهما: يكون التقديم فيه هو الأبلغ، والثاني: يكون التأخير فيه هو الأولى والأبلغ، ولكل منهما فائدة تقتضيه، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، فإن التقديم في الموضعين أفاد تخصيصه سبحانه بالعبادة والاستعانة، بخلاف ما لو قال: (نعبدك ونستعينك)، فإنه يحتمل أن تكون العبادة والاستعانة لغيره[43].

ومن ذلك تقديم خبر المبتدأ عليه، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم: 46]، فقدم خبر المبتدأ هنا؛ لأنه كان أهم عنده، وفيه نوع من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عليه السلام عن آلهته، وأن آلهته لا ينبغي أن يُرغب عنها، وهذا بخلاف ما لو قال: (أأنت راغب عن آلهتي؟)[44].

ومن ذلك تأخير الظرف وتقديمه في النفي: قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]، فأخَّر الظرف هنا؛ لأن القصد الدلالة على نفي الريب عن الكتاب، وإثبات أنه حق وصدق، ولو جاء الظرف بعد النفي لما ثبت هذا المعنى، كما في قوله سبحانه: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: 47]، لأن القصد هنا تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا، كأنه قال: (ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة)، فتأخير الظرف في قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يقتضي النفي أصلاً من غير تفضيل، وتقديم الظرف في قوله

---

[41] الجامع الكبير، ص107.

[42] الجامع الكبير، ص108؛ وينظر: معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد، 279/1؛ المحرر الوجيز، 347/1.

[43] ينظر: الجامع الكبير، ص109؛ الإيضاح في علوم البلاغة، 164/2.

[44] ينظر: الجامع الكبير، ص110؛ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 39/2.

سبحانه: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يقتضي تفضيل المنفي عنه – وهو خمر الجنة- على غيرها من خمور الدنيا[45].

ومن أبواب التقديم والتأخير كثيرة الفوائد واللطائف باب **الاستفهام**: ويختلف المعنى باختلاف ما ابتدأ به المتكلم كلامه، فإن ابتدأ في الاستفهام بالفعل، كان الشك في الفعل، وإن ابتدأ بالاسم كان الشك في الفاعل وحده، فإن قلت: (أأنت فعلت ذاك؟)، كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: 62]، فهم لم يقولوا ذلك لإبراهيم عليه السلام ليُقرّ لهم بأن الأصنام قد كُسرت، وإنما غرضهم الإقرار بأن ذلك حدث منه، ولذلك أجابهم بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: 63]، ولو كان التقرير بالفعل لأجابهم بقوله: (فعلت)، أو (لم أفعل)[46].

- ومن أقسام شجاعة العربية: **الاعتراض**[47]: وهو شعبة من علم البيان تتكاثر محاسنها، والجائز من هذا القسم وغير الجائز إنما يؤخذ من كتب النحو، وتفاصيله تُبحث هناك، ينقسم إلى قسمين: أحدهما: لا يأتي في الكلام إلّا لفائدة، وهو جارٍ مجرى التوكيد في كلام العرب، والثاني: يأتي في الكلام لفائدة. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: 75، 78]، فهذا الكلام فيه اعتراضان: أحدهما: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾؛ لأنه اعتَرَض بين القسم، وهو قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ وبين جوابه، وهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، وجاء ضمن الاعتراض اعتراض آخر، وهو قوله سبحانه: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ بين الموصوف -الذي هو (قَسَم)- وبين صفته -التي هي ﴿عَظِيمٌ﴾-، فهذان اعتراضان. وفائدة الاعتراض بين القسم وجوابه هو تعظيم شأن المقسَم به في نفس السامع[48].

4- ومن أنواع الصناعة المعنوية أيضاً: **الإيجاز**[49]: وهو حذف زيادات الكلام. ويُعرّف بأنه: دلالة اللفظ على المعنى من أقرب طرقه. وهذا النوع لا يلِجُه إلّا فرسان البلاغة؛ لعلو

---

[45] ينظر: الجامع الكبير، ص111؛ البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، 63/1.

[46] ينظر: الجامع الكبير، ص114؛ الطراز لأسرار البلاغة، 109/2؛ حاشية الدسوقي على مختصر المعاني،385/2.

[47] ينظر في تعريف الاعتراض: التحرير والتنوير، 308/29؛ أساليب بلاغية، الفصاحة - البلاغة – المعاني، أحمد مطلوب أحمد، ص242؛ علوم البلاغة "البديع والبيان والمعاني"، الدكتور محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب، ص364.

[48] الجامع الكبير، ص118-119. وينظر، تفسير الكشاف،356/1.

[49] ينظر في تعريف الايجاز: حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، 632/2؛ جواهر البلاغة، ص179.

منزلته، وبعد مناله. وينقسم إلى قسمين: أحدهما: الإيجاز بالحذف، والثاني: ما لا يحذف منه شيء، وهو نوعان كذلك: أحدهما ما ساوى لفظه معناه، والآخر: ما زاد معناه على لفظه، ويسمى القصر.

- **الإيجاز بالحذف**[50]: وهو يشتمل على أربعة عشر باباً، وسأكتفي ببعض الأمثلة منها مما له علاقة بالشواهد من كتاب الله عز وجل، والبلاغة القرآنية. فمنها: **الاكتفاء بالسبب عن المسبَّب**، ومن أمثلته في القرآن قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [القصص: 44، 45]، كأنه قال: (وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه، ولكنا أوحيناه إليك)، فذكر سبب الوحي على عادة اختصارات القرآن الكريم. وتقدير الكلام: (ولكنا أنشأنا بعد الوحي، فاندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك، وعرفناك العلم بقصص الأنبياء، وقصة موسى) عليهم السلام[51].ومنها: **الإضمارُ على شريطة التفسير**: وذلك بحذف الجملة من الكلام إذا كان ما بعدها يدل عليها، ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: 22]، فتقديرُ الآية: (أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه؟) ويدل على المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[52].

ومنها: **حذف الفعل وجوابه**: فأما حذف الفعل: فمثاله قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: 90 - 94]، فقد حذف الفعل في هذا الموضع مكرراً، وتقديره: (فلما رجع موسى إليهم، ورآهم على تلك الحالة من عبادة العجل، قال لأخيه: يا هرون، ما منعك إذ رأيتهم ضلوا. . .؟) الآية[53]. وقد أشار إلى ذك ابن عطية في تفسيره[54]

ومن هذا الباب ما يسمى بإقامة المصدر مقام الفعل؛ وذلك للمبالغة والتأكيد، ومنه

---

[50] ينظر: الطراز لأسرار البلاغة، 49/2 وما بعدها.

[51] الجامع الكبير، ص124-125؛ وينظر: مفاتيح الغيب، 24/ 603؛ الطراز لأسرار البلاغة، 52/2.

[52] الجامع الكبير، ص125-126؛ وينظر: المحرر الوجيز، 1/ 396؛ زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، 13/4.

[53] الجامع الكبير، ص128.

[54] ينظر: المحرر الوجيز، 60/4.

قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: 4]، وأصله: (فاضربوا الأعناق ضرباً) فحذف الفعل، وأقيم المصدر مقامه، وفي ذلك اختصار مع إعطائه معنى التوكيد المصدري[55]، وقد أشار إلى ذلك الزمخشري فقال "وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد، لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه"[56]

وأما حذف جواب الفعل فإنه يكون في الأمر، ومثاله قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: 35، 36]، فحذف جواب الأمر في الآية؛ إذ تقديره: (فقلنا: اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا، فذهبا إليهم، فكذبوهما، فدمرناهم تدميراً). فذكر حاشيتي القصة؛ أولها وآخرها، لأنهما المقصود من القصة بطولها، يعني: إلزام الحجة ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم[57].

ثم ذكر ابن الأثير أنواعاً أخرى مع أمثلتها من كتاب الله تعالى مبيناً نظمه المعجز فيها ما يدل على علو سماء بلاغته فقال: " فانظر أيها المتأمل إلى هذه المحذوفات، التي كأنها لم تحذف من الكلام؛ لظهور معناها وبيانه، ودلالة الحال عليه»[58]، وأكتفي بذكر مواضيعها ومضامينها العامة دون الاستطراد وهي: **حذف المضاف والمضاف إليه، وإقامة كل منهما مقام الآخر**، و**حذف الشرط وجوابه، وحذف القسم وجوابه**.

ثم انتقل إلى النوع الثاني من الإيجاز وهو:

- **الإيجاز من غير حذف:** وهو ضربان: الأول: ما يساوي لفظه معناه، ويسمى التقدير[59] ، ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: 17 - 23]. ولو أراد الإنسان أن يحذف جزءاً من أجزاء هذا الكلام لما قدر على ذلك؛ لأنه سيذهب حينئذ بجزء من معناه، ويختل عليه نظمه[60]، وقد توسع صاحب الطراز في شرح هذا المثال وبيان وجه الاعجاز فيه بما يكون

---

[55] الجامع الكبير، ص128.

[56] تفسير الكشاف،4/ 316

[57] الجامع الكبير، ص129.

[58] الجامع الكبير، ص130.

[59] ينظر: الطراز لأسرار البلاغة، 65/2.

[60] الجامع الكبير، ص142.

دليلاً على أنه أدخل في المعنى، وأعجب في النظم، وأليق ببلاغة القرآن وفصاحته[61]

والثاني: ما زاد معناه على لفظه، ويسمى الإيجاز بالقصر[62]، ومثل له بنصين من كتاب الله تعالى وهما قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [الروم: 44]، وهي كلمة جامعة لِمَا لا غاية وراءه، ولا أمدَ فوقه من المضار؛ لأن من ضارَّه كفره فقد أحاطت به كل مضرة[63]، وسماه صاحب زاد المسير بمجاز الجميع[64]

ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية [النحل: 90]، فهذه الآية من أجمع آية في القرآن الكريم[65].

5- ومن تلك الأنواع: **الإطناب**[66] وهو نوع شديد الالتباس، جعله بعضهم بمنزلة التطويل، وهذا خطأ فاحش، فكما أن الإيجاز له موضع، فكذلك الإطناب له موضع، وهو من جملة أقسام المبالغة. وفائدته: زيادة التصور للمعنى المقصود إما حقيقة، وإما مجازاً[67].

ومن أمثلة ما جاء من الإطناب في القرآن على سبيل الحقيقة قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: 4]، فإن فائدة قوله سبحانه: ﴿فِي جَوْفِهِ﴾ هي ما يحصل للسامع من زيادة التصور للمدلول عليه؛ لأنه إذا سمع به صوَّر نفسه جوفاً يحتوي على قلبه، فكان ذلك أسرع للإنكار[68].

ومن أمثلة ما جاء منه على سبيل المجاز قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، ففائدة ذكر ﴿الصُّدُورِ﴾ هنا ما تُعورف عليه من أن العمى على الحقيقة مكانه البصر، واستعماله في القلب استعارة ومَثَلٌ، فلما أُريد إثبات ما هو بخلاف المتعارف عليه احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف؛ ليقرر أن مكان العمى إنما هو القلوب لا الأبصار[69]. ويبدو أن ابن الأثير رحمه الله نقل الكلام لبيان المجاز في النص الكريم من تفسير الكشاف وهو ما نص عليه الزمخشري ثمة[70].

---

61 ينظر الطراز لأسرار البلاغة، 25/2.

62 ينظر في تعريفه: المصدر نفسه، 68/2.

63 الجامع الكبير، ص144؛ وينظر: مفاتيح الغيب، 20/ 258

64 ينظر: زاد المسير في علم التفسير، 426/3.

65 الجامع الكبير، ص144.

66 ينظر في تعريف الإطناب: الإيضاح في علوم البلاغة، 3/ 196

67 ينظر: الجامع الكبير، ص147

68 ينظر: تفسير الكشاف، 521/3.

69 ينظر: الجامع الكبير، ص151-152.

70 ينظر: تفسير الكشاف، 3/ 162.

6- ومن تلك الأنواع: **توكيد الضمير المتصل بالمنفصل:** ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: 67، 68]، فتوكيد الضمير في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ أنفى للخوف من قلب موسى، وأثبت في نفسه للغلبة والقهر، ولو أنه حذف الضمير لما كان له هذا التقرير والإثبات لنفي الخوف من قلبه. ثم قال ابن الأثير رحمه الله بعد أن استخرج فوائد ستاً من هذه الكلمات الثلاث: «فانظر أيها المتأمل إلى هذه البلاغة العجيبة، التي تحير العقول، وتذهب بالألباب. ولأمر ما أعجز هذا الكلام العزيز البلغاء، وأفحم الفصحاء، ورَجَّلَ فرسانَ الكلام»[71].

7- ومن تلك الأنواع: **الكناية والتعريض**[72]:أما الكناية: فهي أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، وأما التعريض: فهو أن تذكر شيئاً يدل على شيء لم تذكره.

والكناية منها ما يقبُح استعماله، ومنها ما يحسن استعماله، وهو ما له علاقة بالقرآن الكريم، وهو ينقسم إلى أقسام أربعة هي: التمثيل، والإرداف، والمجاورة، وما ليس بتمثيل ولا إرداف ولا مجاورة. وهذه الأقسام كلها لها أمثلة من القرآن الكريم[73]، وسأقتصر على أولها؛ تجنباً لإطالة البحث.

فالتمثيل: هو التشبيه على سبيل الكناية، ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: 12]، وهو من بديع التمثيل؛ إذ لم يقف عند تمثيل الاغتياب بأكل لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم الأخ، ولم يقتصر على لحم الأخ حتى جعله ميتاً، ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة؛ لأن النفوس جُبلت على الميل إلى الغِيبة والشهوة لها، مع العلم بأنها من أشد الأفعال ذمّاً وكراهة. وإذا نظر المتأمل لمطابقة هذا التمثيل لما مثّل به وجده من أبلغ التمثيلات وأندرها مثالاً؛ لأنه يرى كل واحد من هذه الدلالات السابقة مناسبة لما قصدت له، فتمزيق العِرض مثل أكل لحم الإنسان، وجُعل بمنزلة لحم الأخ؛ للمبالغة في الكراهة، وذُكر الميت؛ لامتناع إحساس المغتاب بما وقع عليه من غيبة، واتصال كل ما هو مستكرَه مما سبق بالمحبة لما طُبع في الأنفس من الشهوة للغِيبة والميل إليها[74]. وقد أشار

[71] الجامع الكبير، ص153؛ وينظر: الطراز لأسرار البلاغة،2/78-79.

[72] ينظر في تعريفي الكناية والتعريض والفرق بينهما: تفسير الكشاف، 1/ 282-283؛ مفاتيح الغيب، 6/ 469؛ الطراز لأسرار البلاغة،1/ 185 وما بعدها.

[73] ينظر: الجامع الكبير، ص156 وما بعدها.

[74] ينظر: الجامع الكبير، ص157-158.

الزمخشري إلى هذا المعنى في تفسيره أيضاً إلا أنه لم يسمّه تشبيهاً على سبيل الكناية[75]، غير أن صاحب الطراز قد فصل في بيان الكناية من هذا الموضع الكريم تفصيلاً دقيقاً[76].

وأما التعريض: فممّا جاء منه في القرآن الكريم قول الله سبحانه: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: 27]. فقوله: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه، وأنه لو جعلها الله سبحانه في واحد من البشر لجعلها فيهم، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾[77]. وقد أشار اليه الزمخشري أيضاً في تفسيره[78]

8- ومن تلك الأنواع: **التفسير بعد الإبهام**[79]: والغرض من ذلك تفخيم المبهَم وإعظامه، ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: 66]، ففي إبهام ﴿ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾، وتفسيره فيما بعد بقوله: ﴿دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾، تفخيم للأمر، وتعظيم لشأنه، ولو قال: (وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع) لما كان بهذه المثابة من الفخامة؛ لأن الإبهام يوقع السامع في حيرة وتشوّق إلى معرفة كنهه، والاطلاع على حقيقته[80]. كذا أشار إليه الزمخشري في تفسيره[81]

وأما الإبهام من غير تفسير، فهو كثير شائع في كتاب الله العزيز، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، فجاء قوله: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ غير مفسّر؛ ليذهب الوهم فيه كل مذهب، ويقع على محتملات كثيرة، ومهما قدر المرء من تفسيرات لم يجد لها ذوق البلاغة نفسه الذي يجده مع الإبهام[82]. قال الزمخشري: "وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه"[83]

---

[75] ينظر: تفسير الكشاف، 373/4.

[76] ينظر: الطراز لأسرار البلاغة، 202/1-203.

[77] الجامع الكبير، ص167.

[78] تفسير الكشاف: 388/2.

[79] ومن أغراضه أنه يوجب مزيد تقرير، وتمكين في النفس. ينظر: الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، 519/1.

[80] ينظر: الجامع الكبير، ص172؛ حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي، 302/5.

[81] تفسير الكشاف، 584/2.

[82] ينظر: الجامع الكبير، ص174.

[83] تفسير الكشاف، 651/2.

9- ومن تلك الأنواع: **عطف المُظهَر على ضميره، والإفصاح به بعده:** وفائدته: إما تعظيم المعطوف عليه، وإما ضد ذلك.

فمن أمثلة الأول: قوله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ...﴾ [العنكبوت: 20]، فقد صرح باسمه تعالى في آخر الآية مع إبهامه في أولها؛ لأنهم كانوا يستصعبون إعادة الخلق، فاحتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء الذي يُقرُّون بأنه من الله سبحانه، فللدلالة على عظم هذا الأمر -الذي هو الإعادة- أبرز اسمه تعالى، وجعله مبتدأ ثانياً[84].

10- ومن تلك الأنواع: **التخلص والاقتضاب:** والتخلص: أن يأخذ المؤلف في معنى من المعاني، فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع المؤلف كلامه، ويستأنف كلاماً آخر، وأما الاقتضاب: فهو ضد التخلص[85].

ومما جاء من بديع التخلص في القرآن الكريم قوله سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء: 69 - 72] إلى قوله: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 102]. فهذا الكلام يذهل العقول، ويحير الألباب، فما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها؛ لأنها لا تضر ولا تنفع، وانتقل إلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة أصلاً، ثم أراد الخروج إلى ذكر الإله الواجب العبادة، فصور المسألة في نفسه دونهم، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 77] ، على معنى: إني فكرت في أمري، فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو، وهو الشيطان، فاجتنبتها، وآثرت عبادة مَن الخيرُ كله منه؛ وأراهم أنها نصيحته لنفسه، فتكون أدعى إلى القبول، فتخلص عند تصوير المسألة في نفسه إلى ذكر الله عز وجل، وأجرى عليه الصفات العظام من تفخيم شأنه، وتعديد نعمه عليه من لدن خلقه إلى حين وفاته، ثم خرج من ذلك إلى ما يلائمه، فدعا بدعوات المخلصين الأوابين، ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث والقيامة والجزاء بالجنة أو النار... إلخ[86].

---

[84] ينظر: الجامع الكبير، ص180.

[85] ينظر: المصدر نفسه، ص181؛ الطراز لأسرار البلاغة، 2/182-183.

[86] ينظر: تفسير الكشاف، 3/318؛ الجامع الكبير، ص183-184.

قال ابن الأثير: «فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض مع احتوائه على ضروب من المعاني، فيتخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطيفة دقيقة، حتى كأنه معنى واحد»[87].

11- ومن تلك الأنواع: **خذلان المخاطب:** وهو الأمر بعكس المراد، ويدل ذلك على الاستهانة بالمأمور، وقلة المبالاة بأمره، ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8]. فقوله تعالى: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ من باب الخذلان، إذ معناه: إن حقك ألا تؤمر بالإيمان والطاعة بعد ذلك؛ لأنك أبيت قبول الإيمان والطاعة، وهذا مبالغة في خذلانه، ولو أنه بُعث على الكفر لكان أهون عليه[88].

12- ومن تلك الأنواع: **الحروف العاطفة والجارة:** وهو نوعٌ ينبغي الاعتناء به؛ لأن معانيه ودقائقه لا يتنبه لها إلى الفطن اللبيب، ولم يتعرض لها علماء البلاغة قبل ابن الأثير.

ومن أمثلة حروف العطف في القرآن: قوله سبحانه: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: 17 - 22]. فقد جاءت حروف العطف المختلفة، الواو والفاء وثم، كل منها في موضعه المناسب له بشكل دقيق، فالتقدير يكون تابعاً للخلقة وملازماً لها، فعطَفَه بالفاء، أما ما كان بينه وبين غيره تراخ فعطَفَه بـ(ثم)... وهكذا القول في بقية الحروف[89].

13- ومن تلك الأنواع: **التكرير**[90]: وهو قسمان: أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى، والآخر: يوجد في المعنى دون اللفظ.

ومن أمثلة ما يوجد في اللفظ والمعنى، ويدل على معنى واحد يُقصد به غرضان مختلفان، قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: 105 - 110]. فإنه كرر قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ ليؤكده عندهم، ويقرره في نفوسهم، مع تعليق كل

---

[87] الجامع الكبير، ص184.

[88] ينظر: المصدر نفسه، ص198.

[89] ينظر: المصدر نفسه، ص201-202؛ الطراز لأسرار البلاغة، 25/2.

[90] وقد أدرجه صاحب الطراز لأساليب البلاغة ضمن موضوع التأكيد. ينظر: 94/2.

واحد منهما بعلة مختلفة، فعلّة الأول كونه أميناً فيما بينهم، وعلّة الثاني حسم طمعه عنهم، وخلوه من الأغراض فيما يدعوهم إليه[91].

وأما التكرير في المعنى دون اللفظ فأمثلته كثيرة، ومما يدخل تحته: أن يكون المعنى يدل على معنيين: أحدهما خاص، والآخر عام، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 104]، فالأمر بالمعروف داخل تحت الدعاء إلى الخير؛ لأن الأمر بالمعروف خاص، والخير عام، ففائدة التكرير هنا أنه ذكر الخاص بعد العام؛ للتنبيه على فضله[92].

14- ومن تلك الأنواع: **تناسب المعاني:** وهو أنواع، منها: المطابقة، كمقابلة الشيء بضده، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: 82].

ومنها: المقابلة، ومن المقابلة: التقابل في المعنى دون اللفظ، ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: 63، 64]، فالآية الأولى فصلت بـ(لطيف خبير)؛ لأن ذلك في موضع الرحمة لخلقه بإنزال الغيث وغيره، والثانية فصلت بـ(غني حميد)؛ لأنه قال: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فهو الغني عن خلقه، فذكر الحمد ليدل على أنه الغني، النافع بغناه لخلقه[93].

15- ومن تلك الأنواع: **ورود لام التأكيد في الكلام**: ولا يجيء ذلك إلا لضرب من المبالغة، فإذا عُبّر عن أمر يعز وجوده، جيء بها محققة لذلك، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: 63 - 70]، فقد دخلت اللام في آية المطعوم دون المشروب؛ لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً، والمالح أكثر وجوداً من العذب، فلا حاجة به إلى التأكيد، أما المطعوم فإن جعله حطاماً خارج عن المعتاد، فإذا وقع لا يكون إلا عن سخط وغضب شديد، لذلك قُرن بلام التأكيد؛ زيادة في تحقيق أمره، وتقرير إيجاده[94].

---

[91] ينظر: الجامع الكبير، ص205.

[92] ينظر: المصدر نفسه، ص210؛ الإيضاح لعلوم البلاغة، 200/3.

[93] ينظر: الجامع الكبير، ص2015.

[94] ينظر: الجامع الكبير، ص225.

16- ومن تلك الأنواع: **الإرصاد**، وهو ما سماه أبو هلال العسكري: (التوشيح)[95]، ولم يرتضِ ابن الأثير هذه التسمية؛ لأسباب بيّنها لا أطيل بذكرها هنا[96]، ويسمّيه بعضهم: التّسهيم[97].

والإرصاد: أن يبني الشاعر البيت على قافية قد أرصدها -أي: أعدها- له في نفسه، فيعرف السامع ما سيأتي بعدُ؛ لأن خير الكلام ما دل بعضه على بعض. ومن أمثلته قول الله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: 41]، فإذا وقف السامع على قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ يعلم أن بعده: ﴿لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾[98].

ب-**في الصناعة اللفظية:** بعد أن انتهى ابن الأثير رحمه الله من الكلام على الصناعة المعنوية انتقل للحديث عن الصناعة اللفظية، وجعلها أنواعاً سبعة، سأقتصر على بعضها في البحث؛ بعداً عن التطويل، مكتفياً بما له علاقة بالنظم القرآني، وبيان أعجازه.

1- **السجع والازدواج:** وهو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور على حرف واحد، وهو غير مذموم؛ خلافاً لبعض البلاغيين، ووروده في القرآن دليل على ذلك، وأمثلته كثيرة جداً[99].

وقد يأتي السجع متساوي الفصلين، أو أحدهما أطول من الآخر، فمما جاء فيه الفصلان متساويان، لا يزيد أحدهما على الآخر: قوله سبحانه: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: 1 - 5]، فقد جاءت هذه الفصول متساوية الأجزاء كأنها خرطت في قالب واحد[100].

2- **التجنيس:** وسمي كذلك لأن الكلام يكون تركيبه من جنس واحد[101]. وعرفه أبو هلال العسكري أنه إراد المتكلم كلمتين متجانستين في تأليف حروفها[102].

وقسّم ابن الأثير التجانس في كتابه (الجامع الكبير) إلى أقسام سبعة، أكتفي بذكر

---

95 ينظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، ص382.

96 ينظر: في تعريف الإرصاد: الطراز لأساليب البلاغة،2/ 168؛

97 ينظر: عروس الأفراح،2/ 235.

98 ينظر: الجامع الكبير، ص240.

99 ينظر: كتاب الصناعتين، ص260.

100 ينظر: الجامع الكبير، ص251-253.

101 ينظر: المصدر نفسه، ص256.

102 ينظر: كتاب الصناعتين، ص321

بعضها رغبة في الاختصار، فأعلاها وأشرفها إذا تساوت ألفاظ الكلام في تركيبها ووزنها، ويسمى (التجنيس المطلق)، وليس له مثال في القرآن إلا قول الله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: 55][103].

ومنها: أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22، 23]، فوزن ﴿نَاضِرَةٌ﴾ و﴿نَاظِرَةٌ﴾ واحد، وتركيبهما مختلف. ومنه ﴿تَفْرَحُونَ﴾ و﴿تَمْرَحُونَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: 75][104].

ومنها: أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن، مختلفة في التركيب بحرف واحد، ويسمى **(الجناس الناقص)**[105]، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: 29، 30][106].

ومنها: التجنيس المعكوس[107]: وهو أن يأتي المؤلف بما كان مقدّماً في جزء كلامه الأول مؤخَّراً في الثاني، أو العكس. ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: 19]، وقوله تعالى: ﴿مَا

يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: 2][108].

3- الموازنة: وهو أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن، وهو لطيف الموقع، وللكلام به طلاوة ورونق. ومما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 108 – 110][109].

---

[103] ينظر: الجامع الكبير، ص256.

[104] ينظر: المصدر نفسه، ص260.

[105] ينظر: عروس الأفراح،287/2 .

[106] ينظر: الجامع الكبير، ص261؛ الطراز لأسرار البلاغة، 3/ 19.6

[107] ينظر: حاشية الدسوقي على المختصر، 57/1؛ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي،646/4.

[108] ينظر: الجامع الكبير، ص262.

[109] ينظر: المصدر نفسه، ص270.

الخاتمة

بعد هذا الإبحار في محيطات الإعجاز القرآني، والركوب في مركب ابن الأثير الذي أوقفنا على شواطئ البلاغة القرآنية، وروعة النظم القرآني، يحطُّ البحث رحاله وعينه تصبو عائدة إلى الأفق البعيد، فما ناله من هذه الرحلة زاده شوقاً إلى البقاء فيها، وعدم حط عصا الترحال عنها.

وهل شيء أعظمُ من أن يعيش الإنسان بين آيات كتاب الله، متدبراً ألفاظها وتراكيبها، متأملاً في معانيها ومراميها، مهتدياً بفهم عملاق من عمالقة هذه الصناعة، مستضيئاً بسراج علومه ومعارفه.

إن ما قام به ابن الأثير رحمه الله من بيان الأفانين البلاغية، وربطها بأمثلة من كتاب الله تعالى، لَيفتحُ أفاقاً واسعةً لمزيد من الدراسة والبحث؛ بغية استخراج الكنوز المخبوءة في كتاب الله العزيز، فهو الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يَخلَق على كثرة الردّ.

وإني لأوصي نفسي وإخواني الباحثين بأن يجعلوا من هذا الكتاب أنيسهم، وأن يعيدوا النظر فيه مراراً وتكراراً؛ فإنهم واجدون فيه زاداً لهم في طريق معرفتهم بكتاب الله عز وجل، ومفاتيح تعينهم على فهم كلام الله تعالى فهماً أوسع مما يفهمونه الآن.

ويمكن أن أستنتج من هذا البحث عدة نقاط وهي:

1- أهمية كتاب "الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور" لضياء الدين ابن الاثير الجزري الموصلي في مجال البلاغة القرآنية وبيان نظم القرآن المعجز.

2- توخى ابن الأثير المصطلحات البلاغية المستخدمة عند من سبقوه فنراه قد اقتفى أثرهم وسار على خطاهم في أغلبها ومن أبرز هؤلاء العلماء أبو هلال العسكري والزمخشري إذ نراه كثيراً ما ينقل منهم إما بالنص أو بالتصرف.

3- استعمل بعض المصطلحات البلاغية التي ربما يكون هو أول من استخدمها – على حد درايتي- الكناية التمثيلية، أو التمثيل بالكناية كما ورد في ص20.

4- بين ابن الأثير في كتابه الذي نحن في صدد دراسته نظم القرآن المعجز ببلاغته وأسلوبه فكان منبهراً من علو كعب سماء البلاغة القرآنية والتي لا يطاولها مطاول ولا يدانيها متقول، وقد أشار إلى ذلك مراراً وتكراراً.

ربنا اجعلنا من أهل القرآن، أهل الله وخاصته، وارزقنا حسن فهمه، بفضلك وجودك يا أكرم الأكرمين، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أساليب بلاغية، الفصاحة - البلاغة – المعاني، أحمد مطلوب أحمد أحمد الناصري الصيادي الرفاعي، وكالة المطبوعات – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٠ م .

أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١ هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي (ت: 943هـ)، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

الأعلام، لخير الدين بن محمود الزركلي، دار العلم للملايين، ط 15، 2002م.

إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، لأبي البقاء العكبري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،1399 هـ - 1979م.

أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي(ت:666هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م.

الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين الخطيب القزويني، (ت ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.

البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ .

البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي (ت:1391هـ)، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر بيروت، الطبعة الثانية 1399هـ.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لشمس الدين الذهبي، ت: د. بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.

التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (ت:1393هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة

علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ..

تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي التونسي (ت:1441هـ)، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري الموصلي، بابن الأثير الكاتب (ت ٦٣٧هـ) ، تحقيق: د. مصطفى جواد ود. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٥هـ..

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.

حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢ هـ)، محمد بن عرفة الدسوقي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت.

حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت ١٠٦٩هـ)، دار صادر – بيروت.

الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.

درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠ هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (ت ٧٤٥هـ)، المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ..

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣ هـ)،المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

عُقُودُ الجُمَانْ في عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانْ، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق وضبط: عبد الحميد ضحا، دار الإمام مسلم للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

علم البيان، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٢ م.

علوم البلاغة "البديع والبيان والمعاني"، الدكتور محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م.

الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ..

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ..

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري الموصلي، بابن الأثير الكاتب (ت ٦٣٧هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت،١٤٢٠ هـ..

المحتسب لابن جني، تحقيق: علي ناصيف وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح شلبي، دار سزكين للطباعة والنشر، 1406 هـ - 1986م .

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ..

معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (ت:338هـ)، المحقق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ..

معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت:911هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (ت: هـ)، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.

وفيات الأعيان لأبي العباس ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت.